الفصل الثاني

منهج السيوطي في تحليل القصيدة

ملامح التأويل وظواهر التشكيل

obeikandl.com

obeikandl.com

اعتمد السيوطي، في تحليل قصيدة «بانت سعاد»، الدراسة التاريخية والاجتماعية التي تقوم على استحضار النصوص الغائبة، المتعلقة بالأزمنة والأمكنة والأحداث والوقائع، كما حدثت تاريخياً وواقعياً، وتجسدت دلالياً رمزياً، أو تعبيراً حقيقياً في النص الحاضر.

فقد حاول السيوطي توظيف عالم النص الخارجي في قراءته الداخلية للأبيات الشعرية، فوضع تمهيداً تاريخياً مستوعباً لمقاصد ثلاثة:

الأول: ترجمة ناظم القصيدة، أشار فيها إلى أدبية كعب بن زهير بقوله: «كان كعب رضي اللّه عنه من فحول الشعراء العرب المجيدين. والمهرة المفلقين»(١). وهي إشارة غنية الدلالة على أسلوب أدبي ذي نظام لغوي مميز، وأغراض شعرية منوعة، ونفس شعري ذي امتداد وطول في عدد أبيات القصيدة، مع ضبط لتلاحم أجزائها واتقان لتناميها. وهذه الإشارة ذات تعلق بقيم القصيدة التعبيرية.

الثاني: في سبب نظم القصيدة، وقد أتى السيوطي فيه على الحركة التاريخية الخارجية المفسرة للإشارات الداخلية، بدءاً بمحاورة بجير وكعب للوقوف على ما جاء به محمد ﷺ من دين جديد، ومروراً بإسلام بجير وما تعلق به من مراسلات بينه وبين كعب، وانتهاءً بإهدار النبي عليه الصلاة والسلام دم كعب بن زهير. وهذا المقصد ذو اتصال بمضامين النص الفكرية، وقيمه النفسية.

والثالث: في بيان ترتيب القصيدة وإخراجها في أغراض ثلاثة: الغزل ووصف الناقة والمدح(٢). وهذا البيان هام في الكشف عن بناء النص ونسيجه. ومن عجب أن السيوطي عدّ وصف الرحلة من الغزل، إذ يقول: «... ثم ذكر بعد ما بينه وبينها من المسافة في البيت الثالث عشر، ثم ذكر أنه لا يبلغه إليها إلاّ ناقة من صفتها كذا وكذا، وأطال في وصفها عى عادة العرب في ذلك من أول البيت الرابع عشر إلى آخر البيت الثاني والثلاثين، فاستوفى في وصفها تسعة عشر بيتاً، ثم أخذ في ذكر النوع الرابع

---

(١) كنه المراد في بيان بانت سعاد، مصورة عن الأصل المخطوط المحفوظ في المكتبة الظاهرية – دمشق (فهرس مجاميع المدرسة العمرية) رقم ٦٦، ورقة: ١٣٧ب.

(٢) كنه المراد ورقة: ١٣٨ب.

وهو ما يتعلق بغيرهما بسببهما، فذكر الوشاة وحاله معهم في البيت الثالث والثلاثين بقوله: «تسعى الوشاة جنابيها..» واستطرد في ذلك إلى آخر البيت الخامس والثلاثين، وهو آخر الغزل»(١).

واستشعر السيوطي في تحليله وتفسيره حياداً عن محاولات من سبقه من شراح القصيدة فقال: «وكانت الشروح الموضوعة عليها، فيما وقفت عليه قاصرة على شرح غريبها، وإعراب ألفاظها المؤدية إلى حل تركيبها، دون التعرض لمعانيها التي هي قصد طلابها»(٢). وارتضى لنفسه منهجاً حدد أركانه، وبيّن أبعاده، بأن يخلصه من شرح الغريب والإعراب، وأن «يجمع إلى حل ألفاظها بيان معانيها، ويقرب ما بعد تناوله من ثمار مقاصدها المتراكبة لاقتطاف جانيها»(٣).

وبمعنى آخر فإن منهج السيوطي في شرح القصيدة وتحليلها يقوم على محاور ثلاثة:

- المفردة اللغوية (الدال والمدلول).
- تأويل المعنى (المعنى ومعنى المعنى).
- السياق وتشكيل المعنى.

أولاً: المفردة اللغوية:

عني السيوطي بالمفردة اللغوية أو الدال اللفظي، من حيث الضبط بالشكل التام، والدلالة المعجمية والسياقية، والرواية الراجحة.

وكان ضبط المفردات مطرداً في تناول السيوطي للقصيدة، إذ نصَّ على حركة كل حرف بالحركة والسكون والإدغام، وإفراد النقط وتثنيته، كقوله: «والمتبول، بفتح الميم وإسكان التاء المثناة من فوق، وضم الباء الموحدة: الفاني من شدة الضنا والسقم»(٤).

---

(١) كنه المراد ورقة: ١٣٨ب.

(٢) كنه المراد ق١٣٧أ.

(٣) كنه المراد ق ١٣٧ب.

(٤) كنه المراد ق١٣٨أ.

obeikandl.com

وهذا الضبط هام من جهتين، أحدهما: تخليص المفردة من مشترك الهيئة، وتحرير دلالتها، وثانيهما: ضبط إيقاعية الشعر الخارجية من حيث التناغم مع التفاعيل تحقيقاً لاستمرارية الوزن وتكرار الإيقاع، وتعزيزاً لخاصية التوقع لدى المتلقي، فضلاً عن النبر ومتعلقاته الموسيقية المقطعية والتنغيمية.

وتتجه عناية السيوطي إلى تحديد الدال بالإحالة على الدلالة المعجمية المقيدة العامة، والنظر في الدلالة المكانية الاستبدالية بمطالب المجاورة في السياق، ومقاصد انفتاح الدلالة، كما في قول كعب:

لكنها خلة قد سيط من دمها   فجع وولع وإخلاف وتبديل

إذ قال السيوطي: «... والفجع بفتح الباء وإسكان الجيم والعين المهملة: الإصابة بالمكروه والأذى، والولع، بفتح الواو وإسكان اللام والعين المهملة أيضاً: الكذب، والإخلاف بكسر الهمزة وإسكان الخاء وبالفاء في آخره. خلاف الوفاء، والمراد هنا إخلاف الوعد، بدليل قوله في البيت الذي قبله «لو أنها صدقت موعودها» والتبديل: إبدال الشيء بغيره، والمراد هنا: تبديل خليل بخليل، وهو في الحقيقة وصف الملال»(١).

وفي حمى البحث عن الدقة في تحديد معنى المفردة اللغوية، كان استئناس السيوطي منهجياً برأي علماء اللغة، كأبي عمرو بن العلاء والأصمعي وأبي عبيدة وأبي عمرو الشيباني والجوهري وابن الأثير، إذ إن تعدد الرؤى واختلافها في ذلك يمنح الدلالة انفتاحاً، ويهب المعاني اتساعاً(٢)، إلاّ أن الاستعانة بابن هشام (محمد جمال الدين عبدالله ابن هشام الأنصاري ت ٧٦١هـ) كانت ظاهرة على غيره من اللغويين، فقد نصّ عليه في بعض المواضع، غير أنه غيبه في مواضع أخرى نقل فيها عنه نقلاً نصيّاً، خاصة في إعراب القصيدة وقضاياها النحوية، ومما ورد ذكر ابن هشام فيه تحليل قول كعب:

---

(١) كنه المراد:، ق ١٤٨أ.

(٢) انظر مثالاً على ذلك: كنه المراد: ق١٥٥ب – ١٥٦أ.

من كل نضاخة الذفرى إذا عرقت عرضتها طامس الاعـلام مجهول

قال السيوطي: «قوله: (من كل نضاخة الذفرى) أي: الناقة المذكورة من كل ناقة نضاخة الذفرى بالعرق إذا عرفت، ثم هو يحتمل معنيين: إما أن يريد أنها ناقة من النياق المتصفة بهذه الصفة، وإما أن يريد أن أصل وجودها من كل ناقة هي كذلك، ويكون ذلك وصفاً لها؛ لأنه وصفها بكرم الأصل، وهذا هو الذي رجحه ابن هشام في إعرابه القصيدة»(١).

وإذا كان نقل السيوطي عن ابن هشام يكشف عن تلمذة له في شرحه، ومثاقفة في تحليله، واتجاه فكره ورأيه، فإن ذلك لم يأت على ذاتية السيوطي في التفريع على فهم ابن هشام، أو تخطئة ما ذهب إليه، كقوله: «فإن قيل كيف ساغ له نفي حصول المودة بقوله (وما إخال لدينا منك تنويل) بعد رجائه بقوله (أرجو وآمل أن تدنو مودتها)؟ فالجواب عنه من وجهين، أحدهما: ما أجاب به ابن هشام: أَن المودة والتنويل شيئان لا شيء واحد، ولا يمتنع أن توده بقلبها، وتمنعه من نوالها. الثاني: أَن يكون نفي حصول التنويل من حيث بعدها ونزوح أرضها. كما أشار إليه في البيت الذي يليه»(٢).

وكقوله: «فإن قيل هل يجوز أن يفسر الجوّ في كلامه بما بين السماء والأرض؟ فالجواب: أنه لا يمتنع ذلك، وإن خطأه ابن هشام في شرحه، لأنه قد يراد بسباع الجو: الطيور والكواسر كالنسر وغيره، ويكون في ذلك مبالغة في الشجاعة، وهو أن تخافه سباع الطير، التي هي ممتنعة عنه بأجنحتها، فما الظن بسباع الوحش التي هي ساكنة معه في البر»(٣).

وقد يعرض السيوطي للاختلاف في الرأي حول مدلول اللفظ من غير إسناد، غير أنه يحتفظ لنفسه بقدر من التوجيه والاختيار يشي بإحاطة مميزة في هذا المجال، حيث يقول السيوطي في قول كعب:

---

(١) كنه المراد ق ١٥٣أ.

(٢) كنه المراد: ق١٥١ب وانظر نموذجاً آخر ق١٥٤أ.

(٣) كنه المراد: ق١٦٣أ.

تنفي القـــذى عنه وأفرطـــه		من صوب سارية بيض يعاليل

«وقد اختلف في معنى البيض اليعاليل، فقيل، البيض: الجبال، واليعاليل: الشديدة البـيـاض، وهو الظاهر الذي يرشـد إليـه المعنى، ويكون البـيض: الجـبـال على مـا تـقـدم، واليعاليل: التي ينزل منها الماء مرة بعد أخرى، أخذاً من العلل، وهو الشرب مرة بعد مرة كما تقدم في البيت قبله، وقيل: البيض: الجبال، واليعاليل: المرتفعة، وقيل، البيض: السحب، واليعاليل التي تجيءُ مرة بعد مرة، وردّ بأنه يصير التقدير: وأفرطه بيض سحب يعاليل من صوب سارية، ويكون المعنى أن السحب البيض التي ملأت الأبطح استمدت الماء من مطر تلك السحابة السارية، وذلك يؤدي إلى أن بعض السحب تستمد المطر من بعض، وهو خلاف المراد، وغير الواقع، بل السحب لا تكون بيضاً إلاّ إذا كانت خالية من المطر، وأما إذا كانت حاملة للمطر، فإن لونها يكون أغبر»(١).

ويحيل السيوطي أحياناً في تحديد المدلول على أصل الدلالة في كلام العرب، قصداً إلى التنبيه على نسبية الثبات والعدول في التشكيل الشعري، غير أنه يعمد إلى المؤالفة بين تعدد الدلالات في تحديد المقاصد الشعرية، ما دام النص حمالاً لذلك بمرجعية السياق، كقوله: «والمتبول.. الفاني من شدة الضنا والسقم، يقال: تبلة وأتبله، إذا أسقمه، وتبلهم الدهر وأتبلهم: إذا أفناهم... والمتيم: المستعبد الذليل، يقال: تيمه الحب وتامه؛ إذا استعبده، وتامه: أذله، والمراد هنا: الأسير، بدليل قوله فيما بعد: «لم يُفْد»(٢).

وفي قول كعب بن زهير: «شجت بذي شبم من ماء محنيّة..» قال السيوطي: «أي: شجت تلك الراح بماء ذي شبم من ماء محنية صاف عن الكدر، أي: مزجت مزجاً يكسر سورتها، والأصل في الشج: الشق والكسر، ومنه الشجاج في الرأس..»(٣).

وإذا كانت مرجعية الدلالة العامة في الألفاظ لدى شراح الشعر هي أقوال العرب

---

(١) كنه المراد: ق١٤٥.

(٢) انظر كنه المراد: ق١٣٩أ.

(٣) كنه المراد: ق١٤٤أ.

وكلامهم التي تحملها الإشارة (يقال .. والأصل) فإن السيوطي أوجد للدلالة العامة والخاصة نظائر كثيرة من القرآن الكريم، وأشباهاً ملحوظة من السنة النبوية والشعر، سواء في الدوال أو الروابط، فالتضليل في قول كعب: «إن الأماني والأحلام تضليل» «تفعيل من الضلال، والمراد التضييع والإبطال ومنه قوله تعالى: ﴿ **ألم يجعل كيدهم في تضليل** ﴾، والأصل أن الأماني والأحلام ذوات تضليل، فيجعلها هي نفس التضليل للمبالغة، كما في قوله تعالى: ﴿ **هم درجات عند الله** ﴾ أي: ذوو درجات عند الله»(١).

و«لو» من الأدوات التي استنهض لها السيوطي شبهاً ونظيراً من كتاب الله إذ يقول في قول كعب: (أكرم بها خلة لو أنها صدقت . . .) تحتمل معنيين، أحدهما: أن تكون للتمني كما في قوله تعالى: ﴿ **فلو أن لنا كرة** ﴾ والثاني: الشرط كما في قوله تعالى: ﴿ **ولو ترى إذا المجرمون ناكسو رؤوسهم** ﴾ فيكون المعنى فيها: فيا ليتها صدقت موعودها لكانت خلة كريمة، أو لو صدقت موعودها لتمت خلالها»(٢).

وقد يعمد السيوطي أحياناً إلى الأخذ بانفتاح الدلالة في المفردة اللغوية، وذلك بذكر أكثر من احتمال في معناها، كقوله: «والوجناء، بفتح الواو وإسكان الجيم وبعد النون ألف، محتملة معنيين، أحدهما: أن يريد به العظيمة الوجنتين، وهما طرفا الخد، الثاني: أن يريد به الصلبة، أخذاً من الوجنتين، وهو ما صلب من الأرض»(٣). على أنه في هذا المجال من انفتاح الدلالة يقيد أحياناً الدلالة القريبة والدلالة البعيدة، وذلك بالنص على الظاهر القريب والخفي البعيد كقوله: «والقلب في كلامه يحتمل معنيين، الأول: أن يريد الفؤاد، وهو الظاهر، ومنه قوله تعالى: ﴿ **وختم على سمعه وقلبه** ﴾ ومحله من البدن الصدر . . . الثاني: أن يريد بالقلب العقل، كما في قوله تعالى: ﴿ **إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب** ﴾، ويكون المعنى حينئذ أن عقله من شدة الحب وغلبة العشق، قد ضعف حتى صار كالولهان الهائم الذي لا يفيق ولا يعي»(٤).

---

(١) كنه المراد: ق ١٥٠ب.

(٢) كنه المراد: ق١٤٦ب.

(٣) كنه المراد: ق١٥٤أ وانظر مثالاً آخر في معنى التفضيل: ق١٥٤أ.

(٤) كنه المراد: ق ١٣٩أ.

ولا يترك السيوطي هذه الاحتمالات بغير سببية أو تبرير، لكن اختياره من أي منها إنما يرتكز على علة بلاغية أو سياقية معنوية، يتبدى ذلك من أخذه بالمعنى البعيد الدلالة في مفردة «أمست» من قول كعب: «أمست سعاد بأرض لا يبلغها..» فقوله: «أمست» يحتمل معنيين، أحدهما: أن يكون المراد دخلت في وقت المساء، فيكون مقابلاً لغداة من قوله في البيت الثاني من القصيدة (وما سعاد غداة البين إذ رحلوا) ويكون المعنى أنها ارتحلت غدوة، وأمست بأرض بعيدة، ويكون قد وصفها في رحيلها بسرعة السير، بحيث سارت في اليوم الواحد إلى مسافة لا تدرك إلاّ بالعتاق النجيبات المراسيل من الإبل.. خصوصاً وقد تقدم في البيت الثاني أنه عبر عن رحيلها بلفظ الجمع، إشارة إلى أنها رحلت مع قومها...

الثاني: أن يكون أمست بمعنى صارت، ويكون المراد أنها وصلت في رحيلها إلى أرض بعيدة في الجملة من غير تقدير، وهو أبلغ في بعد المسافة؛ لأن الوصف مستلزم لطول زمن السير، وهذا هو الظاهر»(١).

ووقف السيوطي أحياناً عند الترادف في الألفاظ وسيلة من وسائل تخليص الدلالة من عوالق الاشتراك، وعوائق الإبانة، وحشو التعبير، كقوله: «وآمل: بمد الهمزة وضم الميم معناه أن أرجو أيضاً، يقال: أملت الشيء آمله بضمهما مع المد، إلاّ أن الرجاء لا يكون إلاّ في الممكن، والأمل يكون في الممكن والمستحيل، ولذلك حسن الجمع بينهما لحصول مغايرة ما»(٢).

وقوله: «والطامس الأعلام: المراد به الطريق الدارس الذي محيت آثاره.. والمجهول: الذي لا يعرف، وهو تأكيد لقوله: «طامس الاعلام» مجهول: ضرورة»(٣).

وتأتي تنبيهات السيوطي على البدائل اللفظية في رواية الشعر علامة دالة على وعي بطبيعة التمكن اللغوي للفظ في سياق البيت الشعري، وهو وإن لم يحاول ربط قيمة ذلك

---

(١) كنه المراد: ق١٥٢أ.

(٢) كنه المراد: ق١٥١ب.

(٣) كنه المراد: ق١٥٣أ.

openkamal.com

بوحدة النص وسياقه العام، فقد تنبه للدلالة السياقية وتمييزها على نحو ما عن الدلالة العامة، إذ نظر في هيئات لغوية ثلاثة: المتجانسات، المترادفات، المتناظرات.

ففي التجانس اللفظي اكتفى السيوطي بذكر ما يشاكل الرواية المعتمدة لديه في متن النص، دون علة، استئناساً بما ذهب إليه ابن جني في «تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني» الذي قرر فيه أن الاشتراك في بعض حروف الكلمة يكفي أحياناً للاشتراك في الدلالة(١)، وإن استعان السيوطي في بعض المواضع برأي غيره في تسويغ التمكين الدلالي للرواية أو نفيه، من ذلك ما نقله عن ابن هشام في استدراكه على رواية (قد سيط من دمها): «قال ابن هشام: ويجوز أن تقرأ بالشين (شيط) بدل المهملة، لأنه يقال: شاطه، أي: بمعنى ساطه»(٢).

وفي قول كعب بن زهير: (ضرب إذا عرد السود التنابيل) قال السيوطي: «ويروى (غرَّد) بفتح الغين، المعجمة، قال التبريزي: «وهو الطير الشديد الداء من الطرب» قال ابن هشام في شرحه: ولا معنى لهذه الرواية»(٣).

فقد قنع السيوطي بموافقة ابن هشام في التعليل لتمكن الرواية اللغوية وقلقها، على الرغم من أن ابن هشام أصاب في رفضه لرواية «غرد» وأخطأ في إجازته لرواية «شيط»، لأن مدار المعنى في تقليبات دلالة «شيط» على الاحتراق والذهاب، لا على الخلط والامتزاج(٤).

وفي المترادفات اللفظية كان موقف السيوطي إيجابياً ظاهراً في توجيه الدلالة وتفسيرها في سياق معطيات البيت الشعري، من ذلك قول كعب:

أكرم بها خلة لو أنهـــا صدقت   موعودها أو لو أن النصح مقبول

حيث استوعب السيوطي روايات البيت المختلفة بقوله: «ويروى (فيها لها خلة)

---

(١) انظر الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني - تحقيق محمد علي النجار، ط دار الكتب المصرية ١٩٥٥ - ج٢/ ١٤٥-١٥٢.

(٢) كنه المراد: ق١٤٨أ.

(٣) كنه المراد: ق١٦٥أ.

(٤) انظر لسان العرب: مادة سوط ج٨/١٩٨-١٩٩ ومادة شيط ج٩/٢١١.

بدل (أكرم بها خلة)، ويروى أيضاً (يا ويحها خلة)...، ويروى (يا ويلها خلة) ثم وجه كل رواية بقوله: « وإن أنشد على الرواية المشهورة وهي: (أكرم بها خلة) كان ذلك في غاية المدح... وإن أنشد (فيا لها خلة) على الرواية الثانية بتقدير ألا فاعجبوا لها، أو فيا لها خلة، كان التعجب من كونها اشتملت على حسن الصورة وبديع الجمال... وإن أنشد (يا ويحها خلة) على الرواية الثالثة، كان ذلك من باب التأسف عليها حيث لم تتخلق بأخلاق الكرام المناسبة لبديع منظرها وكرم حسبها... وإن أنشد (يا ويلها) على الرواية الرابعة، كان من باب الدعاء على المحبوب المطلوب فيه عدم الإجابة... »(١).

وفي رواية المتناظرات الدلالية مثل « حواليها » و« جنابيها » و« أهيب » و« أرهب » و« مفلول » و« مجدول » و« عبل » و« فعم » سوّى السيوطي بين كثير من هذه الأمثلة في الدلالة بقوله: « وهو بمعناه »، غير أنه اعتمد أحكام السياق والصنعة التعبيرية وما يتعلق بأناقتها وفنيتها أساساً في التوجيه والترجيح، فبتلاؤم الوصف، وانسجام أجزاء مشهده بعيداً عن التكرار والحشو، قوى السيوطي رواية « وجناء » على « قنواء » في قول كعب:

قنواء في حرتيها للبصير بها　　عتق مبين وفي الخدين تسهيل

إذ أبان أن القناء عيب في الإبل والخيل كما هو منقول عن العرب، « وإن أنشد على الرواية الأخرى وهي « غلباء » لزم منه التكرار، لتقدم هذا الوصف في البيت الثامن عشر في قوله « غلباء » إلاّ أنه تقدم هناك تفسير الوجناء بمعنيين، أحدهما: الصلبة، والثاني: العظيمة الوجنتين، فيجوز أن يكون قصد هناك معنى الصلبة، لأنه هناك تكلم عن عظم خلقها، والمناسب لعظم الخلقة هو الصلابة والقوة، وأن يكون هنا قصد العظيمة الوجنتين، لأنه هنا تكلم في حسن الوجه والرأس من الأنف والأذنين والخدين، فلا يلزم منه تكرار المعنى، وإن تكرر في اللفظ، وهو أولى الوصف مما يعد عيباً في الإبل »(٢).

---

(١) انظر كنه المراد: ق١٤٦أ.

(٢) كنه المراد: ق١٥٦ب.

obeikandl.com

وفي قول كعب:

تخدي على يسرات وهي لاحقة ذوابـــل مسهن الأرض تحليل

قال السيوطي وهو يأخذ في ترجيح الرواية مجانبة الشعر للتكرار والحشو: «وإن أنشد على الرواية الأخرى «وهي لاهية» بدل قوله «لاحقة» كان المعنى أنها لاهية عن السير، غير مكترثة به، مع إسراعها فيه، وذلك سجية لها، فهي تعقله مع غفلتها له، وهو أولى من حيث تعدد المعنى، إذ اللاحقة والذوابل متقاربان في المعنى»(١).

وإذا كان من وظائف الاختيار والانتقاء في العمل الأدبي أن يقصد في غايته العامة إلى إيصال انطباع وجداني لدى القارئ، فإن تحميل الكلمة أبعاداً جمالية خاصة، هو مظهر من مظاهر الاختيار في الأسلوب، فضلاً عن أنه أساس في الكلمة الدقيقة. وقد كان في قصيدة كعب شاهد ذلك، مما جعل السيوطي يعمل ذوقه وإدراكه في الإبانة عن ذلك بالتساؤل تارة، والتقرير تارة أخرى، كقوله: «فإن قيل لِمَ خصَّ الشج دون سائر أنواع المزج المتقدمة، فالجواب أيضاً من وجهين»(٢). وقوله: «فإن قيل لِمَ خصَّ ماء المطر دون غيره من المياه (من صوب غادية) فالجواب من خمسة أوجه»(٣). وقوله: «إنما خصَّ الأكم، التي هي الروابي بالذكر دون غيرها من الأرض؛ لأنها قليلة السلوك...»(٤). وقوله مقرراً «قال أبوالسعادات ابن الأثير في نهايته: وإنما خص ماء محنية بالذكر، لأنه يكون أصفى وأبرد»(٥).

ومنح السيوطي الدال أبعاداً ثقافية نافعة، حين حمله الاستطراد إلى مقالات معرفية في القلب ومحله وقول أهل التشريح في وصفه، ورأي أهل الإدراك والمعرفة فيه؛ بأنه المخاطب والمطالب والمعاقب(٦)، وكذلك يقال عن الرياح وتعريفها ورأي الفلاسفة في تكونها، والحديث عن أصولها وأنواعها الأربعة: الصبا، الدبور، والشمال والجنوب.

---

(١) كنه المراد: ق١٥٧أ.

(٢) انظر كنه المراد: ق١٤٤ب.

(٣) انظر كنه المراد: ق١٤٥ب.

(٤) كنه المراد: ق١٥٧أ.

(٥) كنه المراد: ق١٤٥أ.

(١) كنه المراد: ق١٣٩أ.

ثانياً: تأويل المعنى (معنى المعنى)

التزم السيوطي في تحليل القصيدة تقديم معنى للبيت مجملاً، يأتي فيه على منطوق الألفاظ الظاهرة، غير أن ذلك لم يصرفه عن وضع المعنى العام في سياق من المعاني السابقة، طلباً للسببية والاتصال، وقصداً إلى ربط المعاني الجزئية بالمعنى المحوري للغرض، (الغزل، وصف الناقة، المدح) ولكن دون الالتفات إلى المعنى المحوري في القصيدة إلاّ نادراً، فمن الأبيات التي ربطت بالغزل قول كعب:

شجت بذي شبم من مـــاء محنية   صاف بأبطح أضحى وهو مشمول

قال السيوطي: «ومعنى البيت أن الماء الذي مزجت به تلك الراح بارد وصاف، أخذ من منعطف الوادي في مسيل واسع، تربته دقاق الحصى، وكان أخذه منه في وقت الضحى، بعد أن ضربته ريح الشمال حتى برد، وذلك أنه لما شبه ثغرها بمنهل معلول بالراح على ما تقدم في البيت الذي قبله، شرع في وصف «الراح» الذي شبه الثغر بها، فوصفها أولاً بأنها مزجت بالماء»(١). وكقوله: «ومعنى البيت.. وذلك أنه وصفها في البيت السابع والثامن والتاسع بتسعة أوصاف، وهي الإصابة بالمكروه والكذب... ومن كان بهذه الصفة لا ينبغي أن يوثق له بقول، ولا يتعلق له بوعد، ومن تعلق بالأماني، ووقف مع التمني، فقد طمع في المال، وأقل ما لا يرجى، فأتعب نفسه، وشتت خاطره(٢).

ومما جاء ارتباط معناه بوصف الناقة، قول كعب:

ترمي الغيوب بعني مفرد لهق   إذا توقفت الحـــــــزاز والميل

الذي معناه: «أن هذه الناقة إذا اشتد الحر، وتوقدت الرمال والأمكنة الصلبة بحر الهواجر، وقرت العيون لشدة تأثير الشمس، كانت حينئذ في غاية تحدق البصر لمعرفة

---

(١) كنه المراد: ق١٤٤أ.

(٢) كنه المراد: ق١٥٠ب.

الطريق الدارسة الآثار، وذلك أنه لما ذكر في البيت الذي قبله أن همتها الطريق الطامس الأعلام، المجهول المسالك، بين في هذا البيت وجه اهتمامها بذلك، فشبهها بالثور الوحشي الذي قد ألف البراري والفلوات...»[١].

وندت عن السيوطي بعض الإشارات المحدودة إلى الحالات النفسية في النص، كالتأسف والتلطف والاستعطاف، وهي ذات قيمة على نحو ما في تأكيد أن المعنى الشعري نتاج التآلف بين الأفكار والمشاعر، ففي قول كعب:

أكرم بهـا خلة لو أنهـا صدقت موعودها أو لو أن النصح مقبول

بلور السيوطي إحساس التأسف الذي أظهره كعب لتباين جمال سعاد الخلقي الباطن عن الجمال الحسي الظاهر، إذ يقول: «ولما كانت سعاد من الحسن والجمال على الوصف الذي قدم ذكره، إلاّ أنها كانت سيئة العشرة، قليلة الموافاة، تأسف عليها لكونها لم تكمل خلالها، ولم تتم خصالها، ولم يصده ما لاقاه من سوء عشرتها، وقلة موافاتها عن محبته لها، ولم يثن عنانه عن مودتها، بل لم يزد فيها إلاّ هياماً، ولم يحدث عنده إلاّ وداً»[٢].

وقد رصد كعب بن زهير الغزل ووصف الناقة للتنصل والاستعطاف في قوله:

أنبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول اللّه مأمول

وقوله:

مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ ـقرآن فيـه مواعيظ وتفصيل

الذي جاء «كالتتمة للبيت الذي قبله: لاشتماله على تمام الاستعطاف في ثلاثة أوجه...»[٣].

ويتشكل المعنى في قصيدة كعب بن زهير بالنظر إليه من خلال ائتلاف محورين، أحدهما، أفقي موضعي يتخذ من أركان البيت الشعري منطلقاً له في تشكيل العلائق

---

(١) كنه المراد: ق١٥٠ب.

(٢) كنه المراد: ق١٤٦ب – ١٤٧أ.

(٣) انظر كنه المراد: ق١٦٠ب.

obeikandi.com

الفكرية والصفات الشعرية، والثاني: رأسي يتجلى بإحالة المعنى الأفقي الموضعي إلى المعنى العام في النص أو الصفة الجامعة، قصداً إلى وضع المعنى في السياق العام بالتنبيه على التوصيلات الدقيقة الجامعة له. ومن أمثلة ذلك قول كعب:

حرف أخوها أبوها من مهجنة وعمها خالها قوداء شمليل

وتناول السيوطي ذلك بالقول: «واعلم أنه قد صدر البيت بقوله «حرف» وقد تقدم أن المراد بالحرف: الصلبة القوية، ثم اتبعه بذكر تداخل نسبها، إشارة إلى أن مثل ذلك يؤثر في الإبل القوة، لرجوعها إلى نسب محقق في ذلك، إلاّ أن مثل ذلك إذا وقع في الآدميين أثر الضعف ونحافة البدن... ثم إنه أثبت للناقة كرم الأصل بقوله: «من مهجنة» وخلوص النسب بقوله «أخوهما أبوها وعمها خالها» رتب لها ذلك على صفتين من صفات كرائم الإبل الصفة الأولى؛ طول الظهر والعنق، وهو المعنى بقوله: «قوداء» على ما تقدم شرحه، وهو من أوصاف الإبل التي يتمدح بها. الصفة الثانية: الخفة والسرعة، وهو المراد بقوله: «شمليل»، وهو من أجمل الأوصاف التي فيها.

فإن قيل: قد ذكر وصف الخفة والسرعة بقوله: «النجيبات المراسيل» على ما تقدم، ثم أعاده هنا ووصفه بطول العنق بقوله: «قوداء». الجواب أن ذكر السرعة أولاً راجع إلى الوصف العام في الإبل، حيث قال:

أمست سعاد بأرض لا يبلغها إلاّ العتاق .... البيت، وذكره هنا مقصوراً على هذه الناقة المخصوصة. وكيف ما كان، فالخفة والسرعة هي المطلوبة في الناقة لهذه الحالة، إذ الغرض سرعة توصله إلى محبوبته مع بعد مسافة ما بينه وبينها. أما وصف طول العنق فإن في قوله: «قدامها ميل» جعله وصفاً مستقلاً بهذا المعنى، وفي قوله: «قوداء» أراد به طول الظهر، وطول العنق جافيته»(١).

ويذهب السيوطي إلى التأويل في الكشف عن خفايا المعنى والدلالة، إذ لا يكتفي بمنطوق البيت الذي كان يدل عليه بلازمة «ومعنى البيت» مباشرة بعد تحديده للدوال المفردة، بل كان مرماه المعنى الثاني المتأول، أو معنى المعنى الأبعد، وقد توسل إلى ذلك

---

(١) كنه المراد: ق٥٥أ.

بأساليب منها النص على احتمالات المعنى كقوله: « ثم لما أشار إلى عدم وفائها بالوعد لقوله « لو أنها صدقت » أتبع ذلك بوصف آخر وهو عدم قبول النصح، وهو محتمل لمعنيين: الأول.،... المعنى الثاني »(١)، بل إن السيوطي يربط الاحتمالية في إدراكه للمعاني بالتأويل نصاً في قوله: « وهو يحتمل تأويلين: الأول... التأويل الثاني، وذلك في تناوله لقول كعب: « كأنه منهل بالراح معلول »(٢).

وكثيراً ما يستبدل السيوطي باحتمالات المعاني مقاصد الشاعر التي يرمي إليها، جرياً مع المذهب ذاته الآخذ بتأويل المعاني وطلب انفتاح الدلالة فيها كقوله: « وقد اشتمل البيت على ثلاثة مقاصد »(٣)، وقوله: « ثم معنى البيت يرجع إلى مقصدين »(٤).

وتأتي الإشارة وسيلة أخرى من وسائل السيوطي في الكشف عن المعاني غير الظاهرة، فكعب بن زهير « وإن لم يصرح بالحرّ فقد أشار إليه من وجهين... »(٥) وفي قول كعب « أمست سعاد بأرض لا يبلغها... » كانت « الإشارة في البعد من وجهين »(٦). وفي وضع كعب لكفه في يمين رسول الله ﷺ « أشار في بعض كلامه إلى ثلاثة مقاصد »(٧).

وتعزز الأسئلة التي يطرحها السيوطي أسلوباً آخر في انتاج المعنى المتأول الأبعد، إذ يحمل السؤال المتوقع أو المتخيل إجابة لخصوص التصور، ودقيق المقصدية في مطالب الموقف والتفكير والتعبير من النواحي النفسية والفنية. فمما كان السؤال فيه كاشفاً لدقائق الموقف الشعري قوله: « فإن قيل كيف ساغ أن يتغزل بامرأة في قصيدة أنشدها بين يدي النبي ﷺ؟ فالجواب: أنه جرى في ذلك على عادة العرب في أشعارهم، وسماع

---

(١) انظر كنه المراد: ق١٤٧ب.

(٢) انظر كنه المراد: ق١٤٢أ – ١٤٢ب.

(٣) كنه المراد: ق١٦٢ب.

(٤) كنه المراد: ق١٥٢أ.

(٥) كنه المراد: ق١٥٧ب.

(٦) كنه المراد: ق١٥٢ب.

(٧) كنه المراد: ق١٦٦ب.

obeikandi.com

النبي ﷺ لذلك دليل الجواز إذ يحتمل أنه قصد امرأة معينة كانت حليلته وبانت عنه فتغزل فيها، وقد نص العلماء رضي الله عنهم على أنه إنما يمتنع التغزل فيها إذا كان الشخص معين أو امرأة أجنبية، أما إذا كان بحليلة أو غير معين فلا منع فيه كما تقدم، على أن محبتهم كانت غير مفضية إلى الخنا والقبح. ويحتمل أنه لم يقصد بذلك امرأة معينة، بل جرى فيه على أكثر عادة الشعراء في ذلك، ولا منع فيه»(١).

وقوله: «فإن قيل لم قدم وصف الغنة على وصف غض الطرف، ووصف غض الطرف على وصف الكحل؟ فالجواب أن الغنة من صفات الصوت، والغالب سماعه مع عدم الرؤية، ثم تلاه بوصف غض الطرف الذي لا يمكن النظر إليه إلاّ مع انطباق الجفن؛ ثم تبعه بذكر الكحل الذي لا يمكن رؤيته إلاّ مع انفتاح العين، وكأنه لمّا سمع صوتها استحلاه، فدعاه ذلك إلى رؤيتها، فاحتال على نظرها، فرأى جفنها منسدلاً لغلبة الحياء عليها، فدعاه ذلك إلى رؤية داخل عينها، فسارقها النظر حتى رآها، فرأى في كل الحالات ما أبهج خاطره، وهيّج بلباله»(٢).

ومن ذلك قوله: «فإن قيل لأي معنى اختار ذكر الممزوجة في كلامه على الصرفة، حيث قال «شجت»؟. فالجواب: من وجهين،... فإن قيل لم خص الشج دون سائر أنواع المزج المتقدمة؟ فالجواب أيضاً من وجهين...»(٣).

ومن الأسئلة التي طارد بها السيوطي الدلالة البنائية لقول كعب:

ترمي الغيوب بعيني مفرد لهق   إذا توقـــــــدت الحزاز والميلُ

قوله: «فإن قيل لم خص الثور الوحشي بالتشبيه به في حدة البصر دون غيره من الحيوانات، ولم خصه بذلك في حال تفرده دون غيره؟ الجواب: أن الثور الوحشي من أحد الوحوش نظراً، وإن انفرد عن أنيشته، يكثر حينئذ تحديقه في النظر، ويقوى نشاطه وخفته. فإن قيل لم خصه بالبياض ولا مدخل للون في تشبيهه الناقة بالثور في

---

(١) كنه المراد: ق ١٤٠ب.

(٢) كنه المراد: ق١٤٢أ.

(٣) كنه المراد: ق ١٤٤ب.

حدة البصر؟ فالجواب في ذلك معنى آخر غير تحديق النظر وحدته، وهو الحسن، لأن عين البقر الوحشية في غاية من السواد، فإذا كان الثور منها مع سواد عينيه أبيض، كان في غاية الحسن»(١).

ومما أدرك به السيوطي الدلالة البعيدة، متجاوزاً بها حدود اللغة المقيدة ظاهرياً، قول كعب:

يمشي القراد عليها ثم يزلقه   منهــا لبان وأقراب زهاليل

إذ يقول: «فإن قيل عطف قوله «يزلقه» بثم وهي للتراخي.. فمقتضى قوله أن القراد لا يزلق عنها بسرعة بل يبقى زماناً؟ الجواب: أن ثم تقع في كلام العرب لغير الإمهال كما في قوله الشاعر:

كهز الرديني تحت العجـــاج   جرى في الأنابيب ثم اضطرب

إذ ليس المراد تأخر اضطراب الرمح عن زمن جريان هذه الأنابيب، فكذلك لا يراد هنا تطاول زمن مشي القراد عليها وتراخي الإزلاق عنها»(٢).

وانعطف السيوطي بمعنى المعنى في القصيدة إلى آفاق إنسانية واجتماعية، حين استنهض خبرته في الفهم والتلقي مستوعباً بها مدارات المعاني الشعرية، وما يرتبط بفلكها، وما ينزاح عنها، بالأسئلة تارة وبالتقرير تارة أخرى. فقد وصل السيوطي السؤال عن مسوغ وصف كعب لمحبوبته الذي لا يليق بعدو فضلاً عن حبيب، بجواب قائم على بعد اجتماعي وإنساني في آن، حين جعل ذلك متعلقاً بأحوال المحبة من الوصل والهجر وما شاكل ذلك من جهة، وبتنفير الآخر من طلبها، وتقليل الرغبة في حبها من جهة أخرى(٣).

وجاء قرار السيوطي تعليمياً إنسانياً في تحليله لفراق سعاد ورحيلها عند قول

---

(١) كنه المراد: ق١٥٣ب.

(٢) كنه المراد: ق١٥٥ب.

(٣) انظر كنه المراد: ق١٤٩ب.

كعب: «وما سعاد غداة البين إذ رحلوا...» إذ يقول: «واعلم أن بعد الأحباب عذاب، وإذا كان المحب مع قرب الدار لا يشفي غليله، ولا يشقي عليله، فكيف يصبر على البلاء، أو يلذ له الرقاد؟»(١).

وفي حمى هذا الانعطاف جاء الاستطراد إلى قيم دينية وعلمية وأدبية، تضع المعنى الشعري في أصوله التي نبت منها، أو جذوره التي تفرع عنها، ففي قول كعب:

تسعى الوشاة جنابيها وقولهم   إنك يا ابن أبي سلمى لمقتول

كان حديث السيوطي متصلاً بالبيت حين استوعب الوشاية بين الأحبة بحكم شرعي في قوله: «واعلم أن السعي والمشي بالنميمة، وإفساد ما بين الأحبة، خصوصاً بالزور والبهتان، أمر مذموم شرعاً، وقد ورد الكتاب والسنة بذمه، والنهي عنه قال اللّه تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين**﴾ فأمر بالتبين والتثبيت فيما ينقله الساعي، ويمشي به النمام... وسماه فاسقاً بقوله ﴿**إن جاءكم فاسق**﴾ والمعنى فيه أنه إذا نمّ ومشى في السعاية، خرج عن أن يكون ثقة، وقد ذمه الله تعالى، ونهى عن طاعته واتباعه بقوله: ﴿**ولا تطع كل حلاف مهين، هماز مشاء بنميم، مناع للخير معتدٍ أثيم**﴾ ووعده بالويل بقوله: ﴿**ويل لكل همزة لمزة**﴾ والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل، وقد قال ﷺ «أبغضكم إليّ المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة»(٢).

وفي قول كعب يمدح الصحابة رضي اللّه عنهم بلبس الدروع:

شمّ العرانين أبطال لبوسهم   من نسج داود في الهيجا سرابيل

دفع السيوطي شبهة هذا الوصف وسلبية دلالته بشبيه شعري، ونظير فني، من خلال منهجية السؤال والجواب، وذلك بقوله: «فإن قيل: كيف حسن مدحهم بلبس

---

(١) كنه المراد: ق١٥٣أ.

(٢) كنه المراد: ق١٥٨ب.

الدروع، والقتال دون لبسها أعلى في رتبة الشجاعة، وقد أنكر عبدالملك بن مروان علي كُثَيِّر حين امتدحه بقوله :

على ابن أبي العاصي دلاص حصينة   أجـــــــاد المسدي سردها فأذالها
يؤم ضعيف القوم حمـــــــل قناته   ويستضلع القرم الأشم احتمالهـــــا

ولم يمدحه بمثل قول الأعشى في قيس بن معد يكرب :

وإذا أتى بكتيبة ملمومـــــــة   شهباء يخشى الدارعون نهالها
كنت المكرم غير لابس جبـــة   بالسيف تضرب معلماً أبطالها

فالجواب : ما أجاب كثير عبدالملك في قوله : « يا أمير المؤمنين، قد وصفتك بالحزم، ووصف الأعشى صاحبه بالجنون . . . . وإنما وقع من كثير لعبدالملك هو من باب المبالغة، وفيما قاله يريد نظر الحزم، فإن الحزم دليل القوة . . . ومن تمام الحزم الاحتراز، كما أشار إليه كثير، ولذلك أمر اللّه تعالى في قوله : ﴿ **وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم** ﴾ فيكون المدح بلبس الجبة أتم، ولذلك ذهب إليه كعب في مدح المهاجرين »[١] .

وكان الشعر قيمة أدبية ظاهرة الحضور في تعزيز الدلالة في تحليل السيوطي، وقد تباين اعتماده عليه تبايناً واضحاً بين أغراض القصيدة الثلاثة، إذ إنه حشد أكثره في الغزل، فكان عدد الأبيات المستشهد بها مائة وسبعين بيتاً (١٧٠)، في حين لم تجاوز نماذجه أربعة عشر بيتاً في وصف الناقة ومثلها في غرض مدح الرسول ﷺ، فهل يعني ذلك أن خبرة السيوطي في تلقي الغزل وفهمه أوسع مجالاً؟ أم أن طبيعة الغرض تفرض خبرات معينة في التلقي؟ أياً كان الأمر في ذلك، فإن هذه المقطعات التي فيها البيت وفيها البيتان وفيها الخمسة أبيات أيضاً حدّاً أقصى، تشكل ديواناً شعرياً صغيراً، على أن الجدول التالي يعطي مزيداً من بيان عن هذه الخبرة :

---

(١) كنه المراد : ق١٦٤أ.

obeikandl.com

البيت	عدد الأبيات	المقطعات المنسوبة	المقطعات غير المنسوبة	الشواهد
الأول	٢٠	٧	٣	١٠
الثاني	١٥	٦	٤	١٠
الثالث	١٦	٦	٨	١٤
الرابع	١٢	٨	٢	١٠
الخامس	٤	–	٢	٢
السادس	١٨	٥	٦	١١
السابع	١٨	٧	٣	١٠
الثامن	١١	١	٢	٣
التاسع	٢٦	١١	٤	١٥
العاشر	١٦	٧	٢	٩
الحادي عشر	٦	٥	١	٦
الثاني عشر	٤	١	٢	٣
الثالث عشر	٨	–	٥	٥
	١٧٠	٦٤	٤٤	–

فهذا الإحصاء يشير إلى أن السيوطي كان معنياً بالدلالة وآفاقها الشعرية دون النظر إلى توثيق نسبتها، ذلك أن نسبة غير المعروف (٧ر٤٠) كبيرة إذا قيست بنسبة المعروف (٣ر٥٩)، فضلاً عن الإشارة إلى أن الشعر كان مكثف الحضور في الإبانة عن المقاصد الخفية، ملاحقاً لها، فثمانية أبيات من ثلاثة عشر بيتاً من قصيدة كعب استحضر السيوطي فيها أكثر من تسع مقطعات شواهد تفسيرية توضيحية.

ولم يكن الشاعر المشهور بالغزل والمتخصص في قوله في هذا الحشد من المقطعات، هو محط عناية السيوطي، بل إن مرجعيات المعنى وتحديد الدلالة هي الأساس في استحضار النموذج الشعري، فبينما كان التمثل بشعر مجنون ليلى وكثير عزة وجميل بثينة والعباس بن الأحنف ونصيب وابن الطثرية محدوداً في المرة الواحدة غالباً، وفي

المرتين نادراً، فإنا نجد شعر أبي نواس يتمثل به ثلاث مرات، والبحتري ثلاثاً، وابن الفارض ثلاثاً أيضاً.

وقد أتى السيوطي في انتخابه الشعري في الغزل وتوابعه من المعاني على أزمان الشعر العربي، قديمه ومحدثه، شرقية ومغربيه، فضلاً عن مقليه ومكثريه، واتجاهاته الحسية والعذرية والإشارية الصوفية. فمن الجاهلية كان عمرو بن كلثوم وطرفة بن العبد، ومن عصر الإسلام جرير والفرزدق، ومن العصر العباسي أبوتمام وبشار والوأواء الدمشقي والطغرائي وابن نباته، والسري الرفاء، وعتيق بن محمود الوراق، ومن الأندلس ابن خفاجة والمستعين باللّه بن الحكم الأموي، وأبوعبدالله محمد بن الأغلب باللّه محمد بن يوسف نصر بن الأحمر، ومن المتصوفة ابن الفارض والبوصيري والقشيري.

وكان مدار الأبيات الغزلية على البيت والبيتين والثلاثة غالباً، والأربعة نادراً، ولم يتجاوز السيوطي ذلك إلى الخمسة أبيات والستة إلاّ في موضعين، أما الاستدلال في الموضع الأول فكان مكيناً في الدلالة على المعنى، فقد جاء قول المستعين باللّه بن الحكم الأموي، أحد خلفاء الأندلس:

عجباً يهاب الليث حد سناني ... وأهاب لحظ فواتر الأجفان

وأقارع الأهوال لا متهيباً ... منها سوى الإعراض والهجران

وتملكت نفسي ثلاث كالدّمى ... زهر النجوم، نواعم الأبدان

حاكمت فيهن السلو إلى الصبا ... فقضى بسلطان على سلطان

فأبحن من قلبي الحمى وتركنني ... في عزّ ملكي كالأسير الفاني

شاهداً على التتيم، والأسر والرق والذل في قول كعب بن زهير «متيم إثرها» وتعبيراً عن قول السيوطي: «إن المحب إذا تعلق قلبه بالمحبوب، واشتغل خاطره به، صار قلبه في يد محبوبه يتصرف فيه كيف يشاء، ويديره في قبضته كيف شاء، فليس منه مخلص، ولا إلى غيره منه مهرب، فأشبه الأسير المستعبد الذليل في يد من أسره»[1].

---

(١) كنه المراد: ق١٤٠ب.

obeikandl.com

وأما الاستدلال بالأبيات الستة في الموضع الثاني، فقد جاء استطراداً لتمكين معلومة غير أساسية في السياق اللغوي، كقول تأبط شرّاً:

ألا مَــنْ مبلغ فتيــان فهـم	بمـا لاقيت عند رحى بطان
بأني قـد لقيت الغول يهوي	بسيف كالصحيفة صحصحان
فقلت لهـا: كليث من ضوار	أخو سفر فخلّى لي مكـان
فشدت شدة نحـوي فـأهوت	لهـا كف بمصقول يمـان
فأضربهـا بـلا دهشٍ فخرت	صريعـاً لليدين وللجـران

الذي ساقه السيوطي دلالة على زعم العرب أن الغول (نوع من الشياطين) «كانت تتراءى لهم في الفلاة بألوان شتى، وتأخذ جانباً عن الطريق، فيتبعها من يراها ظاناً أنها على طريق، فـيـضل عن الطريق فـيـهلك، وربما قـالوا أنهـا تعـتـرضـهـم في الطريق فتجاريهم»(١).

ومنح السيوطي الاستطراد في هذه المنتخبات الشعرية قيمة أدبية من خلال ثلاثة أساليب، **الأول**: إصدار أحكام ذوقية انطباعية على بعض نماذجها بقوله: «ما أحسن قـول القـائل..». «مـا أحلى قـول القـائل»، «ولله در القـائل»، الذي نجـده في تناول السيوطي لقول كعب: «إن الأماني والأحلام تضليل» قال: «إلاّ أن العاشق ربما استراح إليه وعلل به نفسه، كما يعلل نفسه في طول العمر بالأمل... وأما الحلم بالمحبوب وزيارة طيفـه في المنام، فـإنه الحـال الحـائل والوصـال الذي ليس تحـتـه طائل، ولله در القائل:

قد زارني طيف من أهوى على جلد	من الوشاة وداع الصبح قـد هتفا
فكدت أوقـظ من حولي به فرحـاً	وكـان يهتك ستر الحب بي شغفـا
ثم انتهيت وآمـالـي تخيبني	نيل المنى فاستحالت غبطتي أسفـا

---

(١) كنه المراد: ق١٤٨ب.

obeikandi.com

وما أحسن قول ابن القطان البغدادي:

زال الخيال نحيلاً من مرسله لما شفاني منه الضم والقبل

ما زارني قط إلاّ كي يوافقني على الرقاد فيغنيه ويرتحل

ولما كان الطيف بهذه المثابة لم يرضه بعضهم، بل نفاه وطرده، كما قال طرفة بن العبد:

فقل لخيال الحنظلية ينقلب إليها فإني واصل حبل من وصل

على أن بعض المحبين يأنس بالخيال ويتسلى به، كما قال البحتري:

إذا ما الكرى أهدى إليّ خيالها شفا علة التبريح لو نفع الصدا

ولم أر مثلينا ولا مثل شأننا نعذب أيقاظاً وننعم هجدا

بل بالغ التهامي حتى فضله على اليقظة فقال:

وصل الخيال ووصل الجود إن بخلت سيان ما أشبه الوجدان بالعدم

الطيف أحسن وصلاً إن لذته تخلو عن الإثم والتنغيص والندم»[(١)]

الثاني- تحليل النماذج الشعرية الشواهد تحليلاً دلالياً قاصداً الإبانة عن أبعاد المعنى الشعري في قصيدة كعب بن زهير، مقارنة له بما تداوله الشعراء العرب مخالفة أو مؤالفة، من ذلك قول عمرو بن كلثوم:

مشعشعة كأن الحصّ فيها إذا الماء خالطها سخينا

قال السيوطي: «قال أبوعمر الشيباني: كانوا يسخنون لها الماء في الشتاء، والحصّ في البيت بضم الحاء والصاد المهملتين: الورس، وقيل الزعفران، جعل أن الماء إذا خالطها سخناً أثار منها رائحة طيبة، ولعل ذلك كان يقع لهم في البرد الشديد الذي تجمد فيه الخمر لشدته، فإذا وضع الماء السخن فيها لطفها ورققها، بخلاف البارد، فإنها تزيد

---

(١) كنه المراد: ق١٥٠-١٥١أ.

جموداً إلى جمودها. وإلى هذا المعنى يشير القاضي الفاضل رحمه الله تعالى واصفاً لشدة البرد: «في ليلة قد جمد خمرها، وخمد جمرها..»(١).

ورصد السيوطي هذا التدقيق اللغوي لوضع المعنى الشعري عند كعب في قوله «شجت بذي شبم من ماء محنية...» في سياق الاتجاه الشعري في هذا المجال فقال: «واعلم أن ما ذكره من وصف ماء المزج بالبرد، جرى فيه على الغالب، وربما وقع في كلامهم مزجها بالماء الحار كما أشار إليه عمرو بن كلثوم بقوله في أبيات».

وفي قول الحريري:

تفتر عن لؤلؤ رطب وعن بـرد ... وعن أقاح وعن طلع وعن حبب

قال السيوطي: «فشبه ثغرها باللؤلؤ الشديد بياضه ونقائه، ففيه دلالة على وصفين آخرين مما يستحسن ويرغب إليه؛ الأول: حداثة السن، فإن الإنسان كلما طعن في السن تغير لون أسنانه عن البياض إلى الصفرة أو الخضرة، الثاني: النظافة، لأن تغيّر الأسنان إنما يصدر عن ترك السواك وعدم تعهد الأسنان»(٢).

ركان انعطاف السيوطي إلى هذا التحليل الفني تنبيهاً على مذهب كعب المؤالف للذوق العربي في «أن بياض الأسنان مما يستحسن في الإنسان وتتطلع إليه النفوس، وتنبعث إليه الخواطر»(٣).

الثالث- مناقضة أصحاب المنتخبات الشعرية التي أستأنس بها، بتوجيه معانيها تأييداً وتأكيداً، ورداً ونفياً، فمن ذلك ما جاء من نماذج شعرية في مذهب الشعراء في معالجة إعراض المحبوب وكراهيته للمحب، قال السيوطي: «ولأهل المحبة مذهبان، أحدهما: التحمل والصبر... وثانيهما: أخذ المحبوب بالقهر إن لم يسمح بالوصل كما قال السلطان أبوعبدالله محمد بن الأغلب بالله محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر الأندلسي في ذلك:

أيا ربة القرط التي حسنت هلكي ... على كل حال كان لا بد لي منكِ

---

(١) كنه المراد: ق١٤٤ب.

(٢) كنه المراد: ق١٤٣أ.

(٣) كنه المراد: ق١٤٣أ.

فإمـــا بذل فهو أليق بالهوى   وإمـــا بعز فهو أليق بالملكِ

على أن صلاح الصفدي لم يرتض هذا المذهب، فقال راداً على ابن الأحمر:

تمسك بذل فهو أليق بالهوى   لتنظم مع أهل المحبة في سلك

متى لاق بالعشاق عز وسطوة   كأنك من ذل المحبة في شكِّ

ولا شكَّ أن ابن الأحمر تكلم على قدر مقامه، وعزيز مكانه في السطوة والقهر، والصلاح الصفدي تكلم عن ما يليق بمقام العشق في نفس الأمر، فالعشق يذل الأسود، ويلين الصلد، إلاّ أنه إذا دار الأمر بين الذل والوصل، فالوصل بالعز أولى، كما قلت منتصراً لابن الأحمر وراداً على الصفدي:

إذا لـم يكـن وصل إلى الحب مسعف   وأمسيت تحت الضير والعشق والضنك

ولـم أستطع صبراً على الذل والهوى   فبالعز وصل الخود أولى من الترك[١]

فهذان البيتان جاءا في سياق مناقضة تامة، التزم فيها السيوطي الوزن (الطويل) والقافية (الكاف)، كانت غايتها هدمية لشعر يوسف بن نصر، وتعزيزية لشعر الصفدي.

وللسيوطي مشاركة أخرى بشعره كانت في سياق مناقشة المعاني الشعرية وآفاق الدلالة التي يولدها شعر كعب، وهي وإن كانت محدودة معدودة في مقطوعتين في أربعة أبيات فقط، إلاّ أنها ذات بيان عن اعتداد السيوطي برؤيته الشعرية الموافقة أو المخالفة، فمما جاء في معاناة المحب وما يقاسيه من الوشاة قوله[٢]:

احرص على طرد الرقيب وبعده   إن تغتنم وصل الحبيب تلاعبه

كم ليلة بـات الحبيب بجانبي   لكنني خوف الرقيب أجانبه

وفي تكذيب دعوى المحبوب في التذرع بالعوائق عن الوصل يقول:[٣]

تقيـم معاذيراً وتزعـم صدقها   وتطمـع آمـالي بهـا فـألـين

---

(١) كنه المراد: ق١٥١أ.

(٢) كنه المراد: ق١٤٨أ.

(٣) كنه المراد: ق١٤٨أ.

وتحلف لو تستطيع جادت بوصلها   وليس لمخضوب البنـــان يمـــين

وهذه الأبيات الثمانية هي مجموع ما ضمنه السيوطي هذا الشرح من شعره، وإذا كان هذا العدد لا يمنح الدارس رؤية شمولية في التقويم، إلاّ أنه شاهد على اتجاه شعر العلماء والفقهاء في النزوع المنطقي المتجافي في خطابه عن مطالب الفن في الانفعال والخيال.

وانتخاب السيوطي لنماذجه الشواهد في شرح المعاني وتفسيرها لم يكن في مستوى متوحد من الأدبية، بل تسللت بعض النصوص الضعيفة التركيب، الباهتة العاطفة، كقول الشاعر[١]:

يا حسن الوجه توق الخنا   لا تبـــدل الزين بالشـين

ويا قبيح الوجه كن محسنا   لا تجمعـــن بين قبيحـــين

٣- السياق وتشكيل المعنى

كان من مقاصد السيوطي في تحليل القصيدة «بيان ترتيب هذه القصيدة وسياقتها التي سيقت عليها». فعرَّفَ بأنماط النسيب الأربعة التي تتعلق بالمحب والمحبوب، من حيث الصفات التي هي أسباب المحبة كالشغف والنحول والذبول من جهة المحب، وحمرة الخدود ورشاقة القد والحياء من جهة المحبوب، وما يتعلق بالمحب والمحبوب من هجر وصد ووصل وسلوى واعتذار ووفاء، وما يتعلق بغيرهما بسببهما من الوشاة والرقباء. «والناظم قد أتى في قصيدته قبل التخلص إلى المدح بالأنواع الأربعة»[٢].

وعدّ السيوطي وصف الرحلة أو وصف الناقة من البيت الرابع عشر إلى آخر البيت الثاني والثلاثين من النوع الثالث من النسيب: إذ يقول «فاستوفى في وصفها تسعة عشر بيتاً، ثم أخذ في ذكر النوع الرابع، وهو ما يتعلق بغيرهما بسببهما، فذكر الوشاة وحاله معهم في البيت الثالث والثلاثين بقوله: (تسعى الوشاة جنابيها..) واستطرد في ذلك إلى آخر البيت السادس والثلاثين. وهو آخر الغزل»[٣].

---

(١) كنه المراد: ق١٤٧أ.

(٢) كنه المراد: ق١٣٨أ.

(٣) كنه المراد: ق١٣٨أ.

ولعل السيوطي أدرك على نحو ما أن كعباً خرج عن المألوف في شعره وشعر غيره من أن الناقة وسيلة من وسائل التسرية وتشتيت الهم، حين جعلها وسيلة للوصول إلى المحبوب ووصله[١].

غير أن السيوطي الذي يرى في هذا الموضع التنظيري أن حديث كعب عن الوشاة استطراد في دائرة الغزل من قوله (تسعى الوشاة جنابيها) إلى قوله: (فقلت خلوا سبيلي لا أبا لكم...) نجده في موضع التطبيق والتحليل يخص قول كعب (تسعى الوشاة حواليها...) بأنه نقطة العبور، ومجاز الدخول إلى المدح، إذ يقول بعد أن تحدث عن مقصدين في البيت هما: (سعيهم عندها وإيغار صدرها عليه)، (وإرجافهم وتخويفهم له، وإظهار الشماته به): « ومن هنا تخلص إلى ذكر قصة نفسه، وكيف كان ابتداء أمره مع النبي ﷺ، فانتقل من ذكر سعي الوشاة به عند سعاد إلى تخويفهم له بالقتل الذي كان أوعده به النبي ﷺ حين هدر دمه قبل إسلامه، وهذا هو النوع الرابع من أنواع النسيب. وهو المتعلق بغير المحب والمحبوب بسببهما كما تقدم في أول الشرح، وهو كالتوطئة لما يأتي بعده من المدح »[٢].

لقد منح السيوطي الأبيات الثلاثة ارتباطاً بالغزل؛ لأنها ذات تعلق بالوشاة والرقباء بسبب المحب والمحبوب وعلاقتهما، وفي هذا الربط مجانبة للصواب لأسباب بعضها لغوي وبعضها الآخر فقهي تفسيري.

فقد ارتضى السيوطي رواية « تسعى الوشاة حواليها » ولم يأخذ برواية « تسعى الغواة » فانحرفت به القراءة التلازمية بين الوشاة والعشاق، والرؤية التضمينية لما يكون من سعيهم في التفريق بين المتحابين، إلى توجيه البيت إلى معنى الغزل ومطالبه، حيث صار الوشاة ذوي وظيفة ثنائية وغائية ازدواجية في سعيهم عند سعاد وإيغار صدرها عليه، وإرجافهم وتخويفهم له بالقتل. ولو التفت إلى رواية « تسعى الوشاة حواليها » لأدرك عدداً من الدلالات البينة على غير ما ذهب إليه، فرواية « يسعى الغواة حواليها » التي لم

---

(١) قصيدة كعب بن زهير بانت سعاد وأثرها في التراث العربي، د. محمد السيد ص٦١.

(٢) كنه المراد: ق١٥٥ب.

يأخذ بها السيوطي، أليق بالسياق من رواية «يسعى الوشاة حواليها»، إذ في الغواية والغواة دلالات مفتوحة علي الغي الذي هو الضلال والفساد وعدم الرشاد، ومجانبة الإثابة إلى العقل والاحتكام إليه، مما هو شديد الالتصاق بالتوجيه العقلي والتصور الفكري العقدي، وهو ما لا يحققه «الوشاة» في دلالته النفسية المقيدة بتكدير الصفو، وتزويق الأحاديث، وتزيين الكلام وخلطه، فمحط توجيه الغواة هو الاعتقاد، ومناط تعلق الوشاة هو الاحساس والنفس، ولا شكَّ أن كعباً كان قراره بالتوجه إلى المدينة للقاء رسول اللّه ﷺ اعتقادياً تصحيحياً وليس شعورياً عابراً.

وجعل السيوطي متعلق الضمير في جنابيها وحواليها: «بسعاد»، «أي جانبي سعاد لا الناقة»، ولو قلب الأمر فجعله متعلقاً بالناقة وهو عائد الضمير ومرجعه الأقرب؛ لتبدى له أن الرحلة بالناقة كان اتجاهها إلى رسول الله ﷺ لا إلى سعاد، وإن نشاط الغواة وحركتهم كان حول الناقة بالتفزيع له والتخويف صرفاً له عن قراره، وبالشماته به والسخرية منه، عطفاً له عن عزمه، وتثبيطاً له عن مسيره. وتكون العلاقة الركنية بين سعي الوشاة وقولهم: «إنك يا ابن أبي سلمى لمقتول توافقية سواء أكانت رواية «قولهم» بالضم أم بالنصب.

على أن الرحلة التي بدأت في الظاهر تطلب سعاد «ولن يبلغها إلاّ عذافرة...» انتهت بمفارقة ذات مفاجئة بتغيير وجهة رحلة الناقة، فإذا بها تتجه صوب رسول اللّه ﷺ، يتبدى ذلك بهذه المحاورة في قول الوشاة: «إنك يا ابن أبي سلمى لمقتول» وإجابة كعب: «خلوا سبيلي..، فكل ما قدر الرحمن مفعول» وعلى ذلك كانت حركة الناقة تحمل خفقان القلب، واهتزاز النفس بالأمل. والإشفاق من عدم تحقيقه، وتبلور العزم والتصميم الجاد على الوصول وتحقيق المراد، فالموعد المهم في وصال سعاد غلبه وعيد أهم، ولذلك كان الانحراف بالاتجاه مؤتلفاً بالسياق العام وإن كان مفاجئاً، غير أنه ليس استطراداً وليس غزلاً، بل هو مجاز بالناقة إلى المدح.

وأياً كان الأمر فإن السيوطي أدرك على نحو ما هذا التخلص بقوله: «ومن هنا تخلص إلى ذكر قصة نفسه، وكيف كان ابتداء أمره مع النبي ﷺ»، وهذا التخلص وإن لم يمنحه السيوطي بعداً نقدياً من الحسن والبراعة (حسن التخلص وحسن الانتقال)،

على الرغم من استحقاقه لذلك بما أشرت إليه سابقاً، فإنه يكشف عن عناية ظاهرة في الوقوف علي متوالية متماسكة للنص، وبناء متكامل للقصيدة.

فقد التمس السيوطي لتماسك النص نقطة ارتكاز نفسية تلتقي عندها أفكار النص وتداعيات معانيه، التقطها من ابن هشام[1] في قول كعب:

أُنبئت أن رسول اللّه أوعدني والعفو عند رسول اللّه مأمول

قال السيوطي: «جميع ما تقدم توطئة لهذا السبب، فإن غرضه من القصيدة التنصل والاستعطاف»[2]، وقد سبق عبداللطيف البغدادي ابن هشام والسيوطي في تحديد هذا المرتكز عند شرحه للبيت بقوله: «هذا هو الغرض المقصود من القصيدة، وسائرها مقصود لهذا البيت، وهو التماس العفو»[3].

وكان يمكن لهذا المرتكز النفسي أن يكون مفتاحاً ضوئياً للكشف عن تلاحم أجزاء النظم، لو أن السيوطي ومن سبقه في الإشارة إليه وسعوا مفهومه، ومنحوه الأهمية في ربط ظاهرة التباين في الأغراض والمعاني في النص[4].

ودلل السيوطي على منهجه هذا إما بجمع الأبيات ذات التلازم الظاهر وشرحها معاً، وكان ذلك قليلاً محدوداً في موضعين، في البيت الحادي والأربعين والثاني والأربعين، وفي البيت الرابع والأربعين، والخامس والأربعين، وكان تعليله لذلك بقوله: «هذان البيتان مرتبط أحدهما بالآخر مع تواليهما، فحسن الكلام عليهما جملة واحدة»[5]، أو بالتماس أوجه اتصال الأفكار سياقياً، وهو كثير.

وكانت وحدة المعنى في سياق المعنى الخاص أو الفكرة العامة محط عناية السيوطي

---

(١) انظر شرح قصيدة بانت سعاد ص١٨٧.

(٢) كنه المراد: ق١٥٩ب.

(٣) شرح قصيدة بانت سعاد ص١٤٨.

(٤) انظر تطبيقات على هذا المرتكز النفسي في الباب الرابع «مرويات شعرية وقيم جمالية» من كتاب نحو منهج إسلامي في رواية الشعر ونقده ص٣٣٧-٤٤٣.

(٥) كنه المراد: ق١٦١أ.

في تحليل النص، وذلك بإيجاده علة الارتباط بين معاني الأبيات موضعياً، أو اتصالها رأسياً كقوله: «والمعنى في البيت ظاهر، وحاصله: أنه لما ذكر حال نفسه، وما أعقبه الفراق من الضنك، شرع في وصف ذكر محبوبته التي يهواها، وما اشتملت عليه من المحاسن.. فشبهها بظبي موصوف بأحسن الصفات...»(١) وكقوله: «لما وصف الماء الذي شجت به الراح في البيت الذي قبله بما يرجع حاصله إلى الكثرة والبرودة والصفاء على ما تقدم تقديره هناك، أتبعه في البيت بما يؤكده. فوصفه بخمسة أوصاف...»(٢)، ومن ذلك قوله: في تناول قول كعب (مهلاً هداك الذي عطاك نافلة القرآن..): وهو كالتتمة للبيت الذي قبله، لاشتماله على تمام الاستعطاف في ثلاثة أوجه..» وفي قول كعب: (لا تأخذني بأقوال الوشاة...) قال: «وهذا من تتمة الاستعطاف والتلطف في القول المتوصل به إلى استجلاب القلوب واستمالة الخواطر... وقد وقع الاستعطاف والتلاطف فيه من ثلاثة أوجه...»(٣).

والسيوطي يستعين أحياناً بابن هشام في هذا المجال كقوله: «هذا البيت في الحقيقة مؤكد لقوله: «وجلدها من أطوم... البيت المتقدم. قال ابن هشام: «ولو ذكره إلى جانبه كان أولى». وذلك أنه في ذلك البيت وصف جلدها بالصلابة، بحيث أن الطلح الذي هو القراد لا يؤثر فيه لصلابته، وهذا قدر زائد على ذلك، وهو ملاسة جلدها، بحيث أن القراد يزلق من عليه»(٤).

وفي اتصال الأبيات رأسياً في السياق العام للقصيدة، تجاوز السيوطي العلاقات الموضعية بين البيت والآخر إلى الكشف عن العلاقات الفكرية بوسائل منطقية عقلية، وأخرى لغوية فنية، وهما الجانبان الأساسان في عملية تنسيق النص وبلورة نظامه، ففي الغزل ذكر كعب بن زهير فراق سعاد بقوله: «بانت سعاد» ثم أتبعه بالبيت بالثاني

---

(١) كنه المراد: ق١٤١أ.

(٢) كنه المراد: ق١٤٥ب.

(٣) كنه المراد: ق١٦٠ب.

(٤) كنه المراد: ق١٥٥ب.

بقوله: « وما سعاد غداة البين إذ رحلوا » وأتى على ذكر أوصافها المحمودة من الحسن والجمال الذي لا يلوم على العشق معه لائم، ولا يليق عند الإنصاف أن يعدل معه عادل، ثم أعقبه بذكر أوصافها في العشرة من الصد والجفاء وما في معناه في الأبيات المتعددة بعد ذلك، ثم أعقبه بذكر ما حملته عليه المحبة من الطمع والأمنية بقوله « أرجو وآمل أن تدنو مودتها » ثم استبعد ذلك في بقية لو كانت ربما أمكن استلطافها بالتودد والتملق وغيرهما من أسباب الوصلة.. »(١).

وفي وصف الناقة أوجد السيوطي عللاً وأسباباً للصفات التي حملها وصف كعب لها، فقوله: « قوداء شمليل » وإن بدا أنه إعادة لوصف الخيل بالخفة والسرعة في قوله: « النجيبات المراسيل » وطول العنق في قوله: « قدامها ميل » إلاّ أن بين هذا وذاك عموم « راجع إلى الوصف العام في الإبل » وخصوص « مقصور على هذه الناقة المخصوصة » واستقلال الصفة بذاتها في الموضع، واتصالها بغيرها من الأعضاء(٢).

ويقف السيوطي أيضاً عند صورة الأسد التي شكلها كعب بن زهير على التفصيل في الأبعاد البنائية، وعلى الاعتراض المتقاطع مع تتالي السياق والمتآلف مع حركة المدح وتنامي صوره:

فلهو أخوف عندي إذ أكلمه   وقيل إنك منسوب ومسؤول

من ضيغم بضراء الأرض مخدره   في بطن عثر غيل دونه غيل

يغدو فيلحم ضرغامين عيشهما   لحم من الناس معفور خراديل

إذ يساور قرناً لا يحل له   أن يترك القرن إلاّ وهو مغلول

منه تظل سباع الجو نافرة   ولا تمشي بواديه الأراجيل

ولا يزال بواديه أخو ثقة   مضرج البز والدرسان مأكول

قال السيوطي: « فلما فرغ من وصف الأسد وجعل هيبته من رسول الله ﷺ أشد

---

(١) كنه المراد: ق١٥٢أ.

(٢) كنه المراد: ق١٥٥أ.

obeikandi.com

من هيبته له، رجع إلى تمام مدحه للنبي ﷺ »[١].

ومن النظام اللغوي ذي الامكانيات غير المحدودة، التي تتيح للشاعر وسائل تعبيرية تمكنه من التعبير عن أفكاره ومشاعره، نبه السيوطي على عدد من أدوات الربط بين الأفكار، وأساليب تشكيل المعاني، كالالتفات والتشبيه والتكرار والتقديم والتأخير وغيرها.

فالالتفات الذي هو تغيير في نسق الكلام، وأحد قواعد الربط بين المعاني، عمد إليه كعب للتخلص من غرض إلى آخر في قوله:

أمست سعاد بأرض لا يبلغها   إلاّ العتاق النجيبات المراسيل

يقول السيوطي منبهاً على وظيفته الاتصالية: «وسعاد هي المحدث عنها أولاً، وأعاد اسمها بعد قوله: «أن تدنو مودتها» بلفظ الغيبة؛ لأنه قصد استئناف نوع آخر من الكلام، وهو: وصف أرضها بالبعد، وذكر ما يتوصل بذلك إلى وصف الناقة »[٢].

واستخدم كعب الالتفات أيضاً لكسر التواتر في الخبر من حديث عن الغائب إلى خطاب النفس، قصداً إلى تعزيز الدلالة التي جاءت قراراً مُخْرجاً للنفس من ضلالها وأحلامها:

فلا يغرنك ما منت وما وعدت   إن الأماني والأحلام تضليل

وفي ذلك: «التفات من التكلم إلى الغيبة، ومن حيث أنه صدر الكلام في البيت الأول من القصيدة بصيغة التكلم بقوله: «فقلبي اليوم متبول» ثم رجع هذا من التكلم إلى الخطاب لنفسه بقوله: «فلا يغرنك ما منت وما وعدت» فيكون قد انتقل من التكلم إلى الخطاب، وهو نوع من الأنواع الستة المذكورة في أنواع البديع»[٣].

وبالصورة البيانية التي فصل بين طرفيها بألوان من الجمل المعترضة ذات الخبر والحال

---

(١) كنه المراد: ق١٦٣ب.

(٢) كنه المراد: ق١٥٢أ.

(٣) كنه المراد: ق١٤٩ب.

obeikandl.com

والوصف للمبالغة في صورة المشبه، جمع السيوطي بين البيت الثامن والعشرين:

كأن أوب ذراعيها إذا عرقت وقـد تلفع بالقور العساقيل

والبيت الحادي والثلاثين:

شد النهار ذراعاً عيطل نصف قامت فجاوبهـا نكد مثاكيل

بالتركيب النحوي والبلاغي، إذ إن قوله (ذراعا عيطل) هو خبر كأن في قوله.. (كأن أوب ذراعيها إذا عرقت)... والتقدير: كأن أوب ذراعيها، أي: أوب ذراعي هذه الناقة كالعيطل.. المرأة السباطة القائمة... والمعنى أن ذراعيها في سرعة السير كذراعي امرأة طويلة قامت تلطم وجهها لشدة حزنها على ولدها، فجاوبها نسوة فقدن أولادهن، وذلك أنها إذا رأت حزن غيرها على ولدها، وشدة ما عليه من اللطم، اشتد فعلها، وقوي ترجيع يديها عند النائحة، وهذا التشبيه في غاية الحسن»(١).

وتجدر الإشارة إلى أن عناية السيوطي بتحليل التشبيه المُشَكِّل للمعاني كانت ظاهرة، فهو يرى أن مرجعية التشبيه عند الشعراء هي البيئة التي يختزن منها الشاعر صوره التشبيهية «إذ كل أحد إنما يقع له التشبيه بما في خزانة خياله، ألا ترى لتشبيهات ابن المعتز في شعره إنما باللآلئ واليواقيت، وأصناف الجوهر، وتشبيهات العرب إنما هي بالشيح والقيصوم وأزهار البادية وما شاكل ذلك»(٢).

ويحرص السيوطي على استكناه الأبعاد النفسية للتشبيه بالكشف عن خصوصيات انتقائه وانتخاب جزئياته، ففي تشبيه سعاد بالظبي (وما سعاد غداة البين إذ رحلوا..) تساءل السيوطي عن التشبيه وقت الرحيل: «فإن قيل لِمَ خص تشبيهها بالظبي بحالة الرحيل فالجواب من وجهين...»(٣)، وعن سرّ تشبيه كعب للناقة بالثور في قوله: (ترمي الغبوب بعيني مفرد لهق...) تبصر السيوطي عدداً من الاحتمالات النفسية في إجابته عن الأسئلة التالية: «فإن قيل لم خصَّ الثور الوحشي بالتشبيه به في حدة البصر

---

(١) كنه المراد: ق١٥٧ب – ١٥٨أ.

(٢) كنه المراد: ق١٤١أ.

(٣) كنه المراد: ق١٤١أ.

دون غيره من الحيوانات؟ ولم خصه بذلك في حال تفرده دون غيره؟... فإن قيل لم خصه بالبياض ولا مدخل للون في تشبيهه الناقة بالثور في حدة البصر؟»(١)، وكذلك يتبدى منهج السيوطي النفسي في تحليل التشبيه في تساؤلاته المتلاحقة عن جزئيات صورة الأسد: «فإن قيل لم خصَّ الأسد ببطن عثر؟... فإن قيل ما المعنى في جعله في غيل داخل غيل؟... فإن قيل لم خصَّ وصف ذهابه إلى الاصطياد بالغدوة؟... فإن قيل لم ذكر أولاده بالتثنية؟... فإن قيل لم خصَّ أطفالهما بلحم الآدميين؟.. فإن قيل لم وصف اللحم بكونه يلقى على التراب وكونه قطعاً صغاراً؟»(٢).

والتكرار الذي هو الوسيلة الأسلوبية ذات الآثار التأكيدية والإيقاعية في النص الأدبي، التفت السيوطي إلى مواقعه في وصف الناقة مفسراً لدلالته الوضعية في تناسبه أفقياً غالباً، وتجاوز ذلك أحياناً إلى تشابكه رأسياً في العرض نفسه، دون إسقاط القيمة الفنية في تكامل الوصف واستيفاء أجزائه في الصورة والنظم، ففي قول كعب:

غلباء وجناء علكوم مذكرة   في دفِّها سعة، قدامها ميل

قال السيوطي: «ومعنى البيت أنها مشتملة على القوة والصلابة، وذلك أنه وصفها بستة أوصاف، الأول: غلظ العنق، وهو المعنى بقوله: «غلباء» على ما تقدم ذكره، وقد تقدم في البيت الذي قبله ما يوافقه من شرح قوله: «ضخم مقلدها»، فيكون هذا الوصف قد تكرر معه في بيتين متواليين، وهو أخف من تخصيص المقلد بموضع القلادة على ما تقدم من كلام العسكري، أن النجائب إنما توصف برقة المذبح.

والوصف الثاني: عظم الوجنتين «وجناء»... إن حمل على الصلبة، وهو التفسير الثاني فيها كان ذلك موافقاً لأحد أمرين في العذافرة في البيت الرابع عشر:

ولن يبلغها الأ عذافرة   فيها على الاين إرقال وتبغيل

لأن المراد بها الصلبة العظيمة على ما تقدم.

---

(١) كنه المراد: ق ١٥٣ب.

(٢) انظر كنه المراد: ق ١٦٣أ.

obeikandl.com

والوصف الثالث: كونها شديدة وهو المراد بالعلكوم، وهو المراد بالقوة، وقد تكرر وصفها به، فلا شكّ أنه أعلى أوصافها.

والوصف الرابع: كونها عظيمة الخلقة، وهو المعنى بالمذكرة، وقد تكرر الوصف به أيضاً...، والوصف الخامس كونها واسعة الجنبين، وهو مؤكد للوصف الرابع وصفاً لاستلزام عظم الخلقة، والوصف السادس وإن حملناه «قدامها ميل» طول العنق، وهو المراد بقوله: على سعة الخطو كان وصفاً لها بسرعة السير، الذي هو المقصود الأعظم، وقد تكرر»(١).

وفي قول كعب الذي شبه الناقة فيه بحمار الوحش قصداً إلى تشكيل المعنى بمعارض بيانية:

عيرانة قذفت بالنحض عن عرض مرفقها عن بنات الزور مفتول

قال السيوطي: «وقد تكرر له وصف الصلابة في الناقة في غير موضع، إلاّ أنه بألفاظ مختلفة، فحسن التكرار في موقعها، وقد يريد بذلك التأكيد، فإن هذا الوصف هو المقصود الأعظم من الإبل على ما تقدم ذكره من قبل»(٢).

وفي كناية كعب عن السمن في قوله: «قذفت بالنحض عن عرض» قال السيوطي أيضاً: «وقد تكرر هذا الوصف أيضاً بألفاظ مختلفة»(٣).

وبالمبالغة التي تقوم صنعة الشعر عليها في تشكيل المعاني ومنحها جمالية القيمة، كرر كعب بن زهير تأكيد صورة سير الناقة بقوله:

نواحة رخوة الضبعين ليس لها لما نعى بكرها الناعون معقول

خاصة إذا أخذ برواية «وهي لاهية»، فقد شبّه ذراعي الناقة في سرعة الحركة

---

(١) كنه المراد: ق١٥٤أ - ١٥٤ب.

(٢) كنه المراد: ق١٥٥ب.

(٣) كنه المراد: ق١٥٥ب.

بذراعي النواحة، قال السيوطي مدركاً للرابط اللغوي بين أجزاء الصورة: «قوله «نواحة» أي: كأن ذراعيها في تلك الحالة ذراعا عيطل نواحة» «وقد وقع المبالغة في أربعة أوجه: أحدها: صيغة «نواحة» مبالغة مقتضية لكثرة النواح....»(١).

على أن قول كعب:

تفري اللبان بكفيها ومدرعها ... مشقق عن تراقيها رعابيل

«كالمؤكد للذي قبله (نواحة رخوة...) في ذهاب العقل، والمراد: تشبيه الناقة بها في هذه الحالة، أنها صارت مسلوبة الإدراك والعقل، لا تحس بما تلاقيه من الألم في بدنها وما يفسد من ثيابها»(٢).

بهذه المحاور الثلاثة، شكّل السيوطي رؤية في تحليل القصيدة، حين دمج وعيه بمجرى النص، فأقام حواراً منوّع المستويات، تفاعل فيه مع موضوعاته، فانتهى بالمعاني إلى دلالات منوعة، ومقاصد متعددة، تنم عن وعي فردي مميز في تلقي النص واستكشاف آفاقه، والغوص إلى أعماقه(٣)، متجاوزاً بمنطلقاته من سبقه من الدارسين والشرّاح بجدارة واقتدار معجب.

---

(١) كنه المراد: ق١٥٧أ – ١٥٨أ.

(٢) كنه المراد: ق١٥٨أ.

(٣) انظر المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيكية، وليم راي ص١٧، ص٧٣.

obeikandi.com